تفريغ مادة مرئية بعنوان

أهمية دراسة الفقه من خلال مذهب

.

٦/ ٧/ ٢٠١٧ - ١٢ شوال ١٤٣٨

مدة المادة: ١٢:١٠

الشيخ

أبو قتادة الفلسطيني

حفظه اللّٰه

هناك سؤال طويل وهو متعلق بطرق تعلم الأشخاص.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله:

يقول: حبذا لو توجهنا إلى أحد أمرين لمن أحب تعلم الفقه: التمذهب أو عدم التمذهب؟

نقول: الأصل هو أن نعود للكتاب والسنة، ولكن هذا.. يعني: أن نبطل السنة للوصول للكتاب والسنة.. هذا من الانحراف؛ بمعنى: نحن لا نملك الأدوات للوصول إلى الكتاب والسنة.. لا نعرف الناسخ والمنسوخ.. لا نعرف كثيرًا من معاني الأحاديث ولا أسباب ورودها.. لا نعرف المتقدم والمتأخر.. لا نعرف طرق الاستدلال.. لا نعرف الخاص والعام.. لا نعرف النص من الظاهر.. المؤول.. فعندنا عجز.

فلذلك: البلوغ للكتاب والسنة ليس سهلًا كما يدعي بعضهم.. البعض يدعي ذلك..

وإذا وجد هناك أحاديث نص، ويعرفه عوام الناس في الدلالة على المراد؛ فإن هناك كثير من المسائل مبناها على الاجتهاد، أي: الاستنباط من النص، لأن الحكم الشرعي ليس واحدًا في مستواه من الاستنباط...

هناك من الأمورالظاهرة والبينة، يعني: لو سألت عن التوحيد تعرف تقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾؛ لكن هنا من الفقه ما يعرف بفقه الاستنباط، والعلماء الكبار يتفاوتون في هذا: منهم من يحفر للوصول للمراد مثلًا، ومنهم من يقف علمه وإدراكه إلى.. ولكن هناك من الدرر مالا يبلغها هذا.. ويحتاج إلى من يحفر مترين فيوجد من يحفر مترين، وهكذا.

الله عز وجل جعل كتابه مكنونًا.. أي مغلفًا بالحق، ولابد لهذا المكنون الذي تكنه الحاملات له والصدف له، لابد أن تزال عنه؛ ومن هنا تكون مراتب العلماء، فكثير من مسائل الفقه التي يكون فيها الخلاف مبناها على هذا الأمر، وهو: القدرة على النبط تحت السطح.. وليس فوق السطح.

ولذلك: من السهل أن نقول: نرجع للكتاب والسنة، هذه عبارة سهلة ولها رونق، ولها قبول، وربما يستخدمها الكثير ممن لا يعرفون الفقه فتمشي عليهم..

هناك مسائل أقول: لا تتمذهب.. أين أذهب؟ اذهب للبخاري -هناك المشاكل التي تكلمنا عنها- اذهب إلى صحيح مسلم؟ أين أذهب؟ إلى سنن أبي داود؟ كيف أعرف الصحيح من الضعيف؟ كيف أعرف مستويات النص مع المستدل عليه؟ فلا بد أن نذهب إلى الكتب، والكتب التي تعينك هي كتب المذاهب..

وأنا أنصح طالب العلم في الابتداء: أن يتربى على متن من متون المذاهب العلمية المعتمدة، كمذاهب الأئمة الأربعة، وإن كان في هذا الوقت انتشار المذهب الحنبلي لأسباب تعرفونها لاعلاقة لها بالعلم ولا بالدليل..

ودعوى بعض الناس: بأن المذهب الحنبلي هو أقرب المذاهب للسنة!! فهذا كلام من لا يعرف الفقه ولم يستوعبه.. هذا كلام غير صحيح؛ بل لو قال قائل: المذهب الشافعي هو أقرب للسنة، لكان قوله مستنكرًا عند البعض، وربما -يعني: في وقت آخر- يكون هو القول المقبول لسبب انتشار المذهب وسطوته..

الأسباب معروفة.. سياسية، ومالية، مع وجود المؤسسات، يعني: سهل جدًا أن تجد من يشرح المذهب الحنبلي، ولا يُعاب عليه؛ ومن شرح مذهبًا آخر كمتنٍ شافعي ربما يقال: هذا مذهب الرجل.. هذا له أسباب - للأسف- لا علاقة لها بالعلم.

والقصد: أنا أنصح طالب العلم أن يذهب ابتداءً إلى كتاب لأحد الأئمة من المذاهب السنية المعتبرة - مذهب من مذاهب الأئمة المالكية أو الحنفية أو الشافعية أو الحنابلة- ويقرأه على يد شيخ، وتكون القراءة على شيخ منصف وليس على شيخ متعصب، يعني: ينبهه على بعض المسائل.. يمرنه لأن يكون على درجة ما قاله ابن رشد: "بداية المجتهد ونهاية المقتصد" يمكن للمرء أن يدخل ابتداءً في هذه المرتبة، إلا إذا كان عاميًا لا يستوعب فهذا صعب، لكن يمكن للمرء أن تدخل به في هذه البداية.. أن يكون الشيخ منصفًا، فينبه على بعض شذوذات المذهب، أو على بعض مخالفات المذهب في المتون لما خالف النص صراحة.. هذا يوجد في المذاهب، فيعلم هذا.. ويبحث عن شيخ قدير في المذهب بهذا المستوى..

فمثلًا: نحن نعلم أن ابن قدامة المقدسي في المغني خالف مسائل في مذهب أحمد.. مُفتى بها في المذهب؛ بل إني وجدت الإمام النووي خالف المذهب في المجموع، ثم خالف ابن قدامة المذهب في المغني؛ فهذا عالم منصف شافعي.. إذا نسب إلى مذهب قيل: شافعي، وهذا قيل: حنبلي.. فتجد هذا الإنصاف.. الكمال بن الهُمام كذلك تجده ينصف في هذا الباب في مذهب الأحناف، وكذلك تجد شيئًا عند الإمام الطحاوي رحمه الله.. يقف في مسائل.. يتحدث عن الإسفار والتغليس.. فتجد العلماء الذين هم من أهل الاجتهاد والنظر في المذاهب، لا يدعون إلى هذا التسليم لكل ما في كتب المذهب ومتونه..

فأنا الذي أدعو إليه هو: أن يبدأ المرء العلم بالتمذهب على متنٍ، أو يقرأ هذا المتن على شيخ منصف، وثم المرتبة الثانية هي: مرتبة البحث.. هي مرتبة بداية المجتهد كما سماها ابن رشد "بداية المجتهد ونهاية المقتصد".. أن يعرف من أين أخذ المذهب هذا القول، وأن يتمرن على هذا؛ وكتاب بداية المجتهد رائع في هذا، مع شرح ابن دقيق العيد في كتابه الإحكام، ابن دقيق العيد إمام في هذا.. يُعَلِّم طالب العلم كيف يمزج الأصول بالفقه، لأنه -في الحقيقة- هناك بين الأصول وكتب الأصول وبين الفقه، وهذا له أسباب -للأسف- منها ما قاله الإمام الغزالي في المستصفى: أنه يجب أن تُجرد الأصول عن المسائل الفقهية؛ وزعم -لما ذكرت هذا في شرح الموافقات- بعضهم: أن الإمام الغزالي قال هذا بسبب أنه لا يريد أن يستخدم الأصول لنصرة الفقه!! هذا لا يقوله الغزالي.. هذا كذب على الغزالي.. ولو رجع إلى المستصفى -وهو في بداية الكتاب- لوجد أن هذا ليس مقصد الغزالي.. الغزالي يريد أن يجعل الأصول تجريدية عقلية، بخلاف نقده لمن قبله -وهو أبو زيد الدبوسي عندما مزج- كان هو يتعقب أبو زيد الدبوسي الحنفي في كتابه المستصفى.. القصد: أنه زعم أن الغزالي أراد تجريد الأصول عن الفقه، حتى لا يستخدم الأصول في نصرة المذهب! هذا لم يقله الغزالي.. ارجعوا إلى النص.. وهذا من الافتراء على الغزالي.. وأحدهم لأنه جاء من أجل الرد علي.. هكذا هي النية، سواء أصبت أم أخطأت، فقالها من عنده ولم يكلف نفسه أن يعود إلى المستصفى ليقرأ: نقلي صحيح، أم نقلي مفترى.. نقلي خطأ؟

القصد من هذا: فهذه مرحلة وسطية، ثم يأتي إلى الكتب العلمية التي تجمع المذاهب وتبين الدليل، ويتناغم معها حتى يصبح له قول مستقل إذا نما علمه وصار مجتهدًا باحثًا قادرًا على النظر في الأدلة..

فينظر في المغني.. ينظر في المحلى.. ينظر في المجموع؛ فحينئذ: تتكون لديه الملكة، بحيث يصبح له اختيارات؛ ولكن ابتداء: لابد من إبقاء المبتدئ.. لا يقفز إلى هذه الكتب، لأنه سينتهي مقلدًا.. حتى لو قال: هذا أدلته هكذا، فهو يأخذ من قول ابن قدامة لأنه ذهب إلى المغني مباشرة.

فهذه هي الطريقة إن شاء الله، مع أن شرح هذا الباب -باب التعلم- طويل ويحتاج أكثر من هذا، ولكن نكتفي بهذا فيما يخص التمذهب والمذهبية.

ولا شك أن المذهبية طارئة على أمتنا. طارئة، ولكنها صارت قدرًا لازمًا لطالب العلم أن يدخل منها إلى فقه الكتاب والسنة.. فقه الدليل.

والله تعالى أعلم، وبارك الله فيكم.

تفريغ العبد الفقير لرحمة ربه: أبي عبد الله الرتياني